الدرس العشرون/ تجريد التوحيد المفيد للمقريزي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قراءة الطالب: قال المصنف -رحمه الله-: «والصنف الرّابع: هم القائلون بالجمع بين الخلق والأمر، والقدر والسبب، فعندهم أن سرّ العبادة وغايتها مبني على معرفة حقيقة الإلهيّة، ومعنى كونه سبحانه وتعالى إله: أن العبادة موجَب الإلهية وأثرها ومقتضاها، وارتباطها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسّمع، والإحسان بالرّحمة، والإعطاء بالجود».

الشيخ -حفظه الله-: إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد:

فمن منهج الإمام المقريزي أن يقدم الأقوال الباطلة، ثم يكُرُّ على كل قول في محله، ويبين شيئًا من عواره وفساده، ثم يؤخر القول الأخير وهو مذهب أهل السنة والجماعة، وبضدها تتضح الأشياء.

تبين معنا الأقوال الثلاثة السابقة، وبطلان ما فيها، وأنها شنيعة قبيحة غير سديدة، وهي قائمة على أصول عقدية فاسدة، ثم أخر القول الرابع الذي سمعتم طرفا منه، وسيأتي طرف آخر منه، وهو مذهب أهل السنة والجماعة.

الغاية من العبادة والحكمة قائمة عند أهل السنة على أصول سليمة، ومن هذه الأصول أشياء تخص معتقدنا في القضاء والقدر.

وفساد الفرقة الأولى والثانية السابقتين إنما هو فساد معتقدهم في القدرة قدرة الله عز وجل، فالجبرية النفاة الفرقة الأولى يعتقدون أن الإنسان ليس له إرادة، وإنه كالريشة في مهب الريح، وأن الله قد قدر عليه كل شيء، وأنهم يقومون بالعبادة، وأن الله الذي أمر، وهو الذي يفعل كل ما يشاء. وهذا قسم حق، ولكن الباطل أنه الرب وأنه السيد وأنه الآمر، فله أن يفعل؛ فيُنزل النبوة على دَعيٍّ، وله أن يعذب العابد، وله أن ينعم العاصي، إلى آخر الأقوال الباطلة التي قلناها. فالقول بأن الله له القدرة، فنعم حق، أما القول بأن الإنسان مسلوب منه القدرة، وأنه كالريشة في مهب الريح، فلا.

ثم القول الثاني، وهو عكس الجبرية، وهو قول القدرية الذي تَبَنَّته المعتزلة، أن الله عز وجل ليس له قدرة، يقابل القول الأول، وأنني أنا الذي أخلق فعلي! وهذا يضاد قول الله عز وجل: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}، فالله خالق الإنسان، وخالق فعله، وخالق كل شيء، والإنسان له مشيئة، هم قالوا: للإنسان مشيئة نعم حق، لكن أن الإنسان هو الذي يخلق فعله، هذا خطأ ليس بصحيح، الإنسان له مشيئة صحيح، فإذا أخذنا القول الأول أن الله الذي خلق من الفريق الأول، وأخذنا من الفريق الثاني أن للإنسان قدرة، وركبنا هذين القولين، فهذا صحيح.

القول الثالث: وهو أن الله –عز وجل– نعبده محبةً، ولا نعبده طمعا في جنة، ولا خوفا من نار، هذا باطل، هذا ينسب على ألسنة بعض المنتسبين لأهل العلم، ينسب لزاهدة، امرأة صالحة فاضلة، أقوال تحتاج هذه الشخصية لدراسة، وهي رابعة العدوية، وصار اسم «رابعة» بعد ما ظهرت رابعة العدوية، صار كل امرأة اشتهرت بالزهد وعرفت بالتأله، والتقرب إلى الله –عز وجل– ، تسمى رابعة، وترجم لرابعة العدوية الإمام الذهبي رحمه الله في المجلد الثامن من سير أعلام النبلاء،

وقد نُسب إليها أقوالًا لم تثبت عنها، وذكَرَ أنه عُرفت امرأة في عهده هي «رابعة الدمشقية»، وخلط بين الشخصيتين، أنا أقول خلطت بين عدة شخصيات، بالطريقة الأخرى مثل جحا، فجحا شخصية حقيقية، وفي المجلد الثامن ترجم الإمام الذهبي لجحا، وجحا شخصية فكاهية، فصارت كل فكاهة تطلق على ألسنة الناس تنسب لجحا، فهل هذا جحا الذي كان في القرن الثاني؟ يعني التراجم في المجلد الثامن، في سير أعلام النبلاء هم المتوفون في القرن الثاني، في النصف الثاني من المئة الثانية، وأرخ الإمام الذهبي لرابعة العدوية أنها ماتت سنة مئة وخمسين للهجرة، ماتت سنة مئة وخمسين للهجرة، ثم على فرض أن رابعة رحمها الله وهي امرأة فاضلة قالت: أنا أعبد الله تعالى محبة، وهذه أحوال تمر على القلب، لكن الإنسان المؤمن يعبد الله عز وجل رغبه ورهبا: {وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا}، و{يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ}، كذلك {فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ}، وعند أهل الجنة الرجاء والخوف ينقطع بالدخول في جنة الله عز وجل، أما المحبة هي الأصل، فالباعث الدائم والأصل لعبادة الرب –عز وجل– منبعها وأصلها هي المحبة، فالمحبة باقية بخلاف الرجاء والخوف، لكن أهل السنة والجماعة يراعون الأشياء كلها، وهذا شعارهم، وهذه قاعدة ذكرها وكيع بن الجراح الرؤاسي وهو شيخ الإمام أحمد وشيخ الإمام الشافعي، وهو إمام عظيم من محدثي أهل الكوفة، وكيع الذي شكا إليه الشافعي رحمه الله سوء حفظه:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي

شكا إليه الشافعي –رحمه الله– سوء حفظه وكان حافظًا، محدثًا صالحًا زاهدًا، علَّم كثيرًا من أهل العلم، وكيع كان يقول –كما أسند عنه الإمام الدارقطني في «سننه» في أوائله، وهذه قاعدة مهمة، وتلزم، وهي شعار لأهل الحق في كل أفعالهم، وفي كل أقوالهم، وعلى رأس معتقدهم– قال: (أهل السنة يذكرون الذي لهم والذي عليهم، وأهل البدعة يذكرون الذي لهم ولا يذكرون الذي عليهم).

إذًا ما من بدعيٍّ على وجه الأرض، من سائر الفرق إلا ويلغوا شيئا مما أنزل الله.

القدرية شيخهم عمرو بن عبيد، الفرقة الثانية، وجدوه يحك من المصحف: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}، لأنها تخالف مذهبه وألف الإمام الدارقطني جزء طبع مرتين أو ثلاث مرات، وجميل أن نعرف كيف يفكر أهل البدع، أن تقرأوا «أخبار عمرو»، عظيم، جزء مطبوع، أول ما طبع بالعربية في المعهد الفرنسي الدمشقي.

أهل السنة يذكرون الذي لهم، ويذكرون الذي عليهم، ومعتقدهم مأخوذ من جميع الأحاديث، فالصنف الرابع الذي ذكره المصنف هم أهل الحق وهذا الصنف هو مذهب أهل السنة والجماعة، ولأنهم يأخذون من كل شيء، ما يند عنهم شيء وينزلون كل مسألة، ويعطونها حقها، وينزلونها منزلتها، وتكون في الموضع اللائق بها، كما ذكرنا مثلا موضوع: «التقبيح والتحسين»، صار شعارا لأهل السنة، خلافًا للفرق السابقة الثلاثة، قلنا: من الذي يقضي بأن هذا قبيح وأن هذا حسن؟ هو الشرع، لكن قضاء الشرع به ليس بمعزل عن العقل، فالعقل يكشفه، فكل ما ورد في الشرع من الحسن والقبح هو ليس بمعزل من العقل، بخلاف الفريق الأول، والفريق الثاني، ويظهر هذا جليا إن راجعت المسألة مفصلة، وذكرتُ لكم مراجع المسألة، وبعض القبائح التي يقول بها الفريقان الأول والثاني، ونوهت في مطلع هذه الكلمة بذلك.

أهل السنة يأخذون بكل شيء، يأخذون بكل النصوص، إذا كان موضوع القضاء والقدر، أهل السنة موضوع القدر، يحتجون به تارةً، ويمنعونه تارة، يحتجون بالقدر إن علمناه، وجاءت النصوص بأن هذا قدر الله عز وجل، بمعنى أن أهل السنة يحتجون بالقدر بعد وقوعه، ولا يحتاجون بالقدر قبل وقوعه؛ لأن القدر قبل وقوعه بالنسبة إلينا غيب لا نعرفه.

لما التقى أبونا آدم مع ابنه موسى -عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام-، فموسى قال لآدم: «أنت يا آدم، أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله

بكلامه، وخط لك بيده أتلومني على أمر قدره الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى -ثلاثا-».

من كان صاحب الحجة؟ آدم، والأمر قدر قدره الله علينا، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «فحج آدم موسى»، هذا الاحتجاج بالقدر قبل الوقوع أم بعد الوقوع؟ بعد الوقوع، أما قبل الوقوع فيقول الله عز وجل: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ}، فرد الله عليهم: {عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا}، عندكم علم أن الله قد كتبكم مشركين؟ ولذا نحن بعد أن يقع القدر نرجع إلى الله، من أساء تاب، ومن أحسن فليبق على إحسانه، وليزد منه، أما قبل وقوعه، فنحن لنا إرادة، ولنا مشيئة، ومشيئة الله فوق مشيئتنا، وإرادة الله تعالى فوق إرادتنا، فليس لنا أن نحتج بالقدر وهو غيب عنا.

إذًا مشكلة الذين يحتجون بالقدر، يقول الواحد منهم: سأصلي عندما يشاء الله، وما شابه، فهم يحتجون بالقدر ولا يعرفونه، يحتجون بالقدر قبل وقوعه. الله كلفهم أمرهم بتكاليف شرعية، ويحتجون على تركها قبل وقوعها، ما يعرفون ما هو قدر الله عز وجل، لذا الصحابة لما شكوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا: «فيم العمل؟» فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له»، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: الله أراد منا، وأراد بنا، فأخفى الله تعالى ماذا أراد بنا، ولم يبقَ للمكلف إلا أن ينشغل بماذا أراد الله منه، ويترك ماذا أراد الله به، الله أراد منك وأراد منك، فعرفك ماذا أراد منك، وأخفى عنك ماذا أراد بك، فالسعيد من كان عمله فيما أراد الله منه، وفي «ماذا أراد الله به» فهو الرب، وهو العادل، وهو سبحانه وتعالى الذي يقضي على الخلق، ويعلم السر وأخفى، ويعلم الأفعال وبواطنها، والله -جل في علاه- يحكم على العبد بنواياه وخفاياه، وليس بظاهر أعماله، فحكمه سبحانه وتعالى هو الحق.

إذًا وُفِّقَ أهل السنة لقول الحق في مقابل الأقوال السابقة؛ لأنهم يعتقدون اعتقادًا صحيحا في أصول صحيحة وانبنى على هذه الأصول هذا التصور الذي ذكره في الصنف الرابع، الصنف الرابع القائلون بالجمع بين الخلق والأمر والقدر والسبب، {ألا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ}، الله سبحانه له خلق وله أمر، وما ينبغي أن تنسوا تسلسل ما قلنا من أول الكتاب إلى آخره، هذا الكتاب الذي معنا هو درة فريدة لم يؤلف حتى الآن مثلها في في توحيد العبودية في توحيد الألوهية حوى جميع المباحث، وهي صعبة لكن لها صلة ببعضها بعضا، وقد ذكرنا في هذا المجلس في أوائله أن أهل السنة يفرقون بين المشيئة التي يحبها الله عز وجل، مشيئة الله عز وجل في العبادة والطاعة، وبين القدرة التي هي تخص الكون، بين المشيئة الشرعية والقدرة الكونية الإلهية، وغيرنا لا يفرق بين ذلك، ومَن لم يفرق ضل وذلَّ وضلاله وزلاله يعطى في الشرع، ونحن أهل حق، يعطى في الشرع مقداره من الضلال، إما أن يحكم عليه بالكفر، وإما أن يحكم عليه بالضلال وما شابه، فالخطأ ليس سواء، فالواجب علينا أن نعدل مع كل الأقوام.

قال القائلون يقولون بالخلق، أن لله عز وجل المشيئة في خلقه في قدرته، وما يزني الزاني، ولا يسرق السارق، ولا يرتكب الكافر شيئا من المعاصي رغما عن الله، أنما هو بقدرة الله، لكن بإرادة الله الكونية، لا الشرعية، وفصلنا هذا، وذكرنا عشرة فروق بينهما، وبعض إخواننا الأفاضل ممن حضر أهداني كتيبًا طبعَه في الفرق بين المشيئتين، بناءً على الدروس التي ذكرناها هذه، شرحها جزاه الله خيرًا، فصَّل ما قلناه، وكتبه في كتاب، وضروري لطالب العلم على الأقل أن يفرق بين الأمرين.

قال الصنف الرابع، وهو الآن يعرض مذهب أهل السنة، وقلت: سلك الإمام المقريزي مسلك موسى عليه السلام، قالوا: نلقي أم تلقي؟ فماذا فعل موسى؟ {قَالَ بَلْ أَلْقُوا}، إذًا عندما يأتي واحد معه حق، وآخر مبطل، ويحصل بينهما نقاش، ومناظرة ومجادلة، من الذي ينبغي أن يبدأ؟ المبطل؛ لأن المحق وهو يتكلم في الحق، إن زل في كلمة، يعني زللاً عرضيّاً، يأخذها ويطير بها، وينشغل بها، وتنتهي المناظرة بلا شك.

فأحسن المقريزي، فذكر الأقوال المبطلة بداية، على نهج موسى عليه السلام {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ}، من السابق، الحق ولا الباطل؟ الباطل، انتبه! حتى تفهم سنة الله، فمن سنن الله في كونه، أن المبطلين هم الذين يبدأون، ثم ينتهون، ثم يتقدم أناس عندهم شيء من الحق، وهكذا.

لذا أول ما أبتدأ ما يسمونه اليوم الصحوة أيام الخميني، فقلت: هذا أول الباطل، الباطل سيزول، لن يبقى، الباطل سيزول، وهذه سنة لله عز وجل، الذي يبدأ المبطل، ثم الله جل في علاه يسلط على المبطل جنده، وجنده في الشرع الآيات والأحاديث يحملها أناس مختارون في الكون، اختارهم الله تعالى في سنته في كونه، فهم الذين يفندون، ويعملون على دحر الباطل، هذه سنن لله ما ينبغي أن ننساها، وما ينبغي أبدا أن تفوتنا.

قال هم القائلون بالجمع بين الخلق والأمر والقدر.

(الأمر والسبب)، هذا يعني ظهر لنا عوار الفرقة الأولى، قالوا: الله يوجد الارتواء عند شرب الماء لا بالماء. يعني مَن خلق الارتواء؟ الله، وقالوا: ليس الأكل سببا للشبع، فإذا قيل لهم: لا أشبع إلا إذا أكلت، قالوا: إذا قلنا الأكل سبب الشبع فهذا خلق غير خلق الله، وهذا باطل. هذا الفرقة الأولى التي فصلنا فساد قولها، فالله يخلق سبحانه وتعالى شبعًا للأكل، والله يقطع بسبب السيف، والله يحرق بسبب النار، والأسباب والمسببات مرتبطة ببعضها بعضا، وهذا أيضا وجه من وجوه أهل الحق.

وحتى أسهل لك المسألة، لو أن اثنين ذهبا للتوضؤ، ووقفوا أمام الصنبور، هذا فتح الصنبور ليتوضأ، وهذا فتح الحنفية ليتوضأ، فالأول عندما فتح الصنبور وجد الماء، والآخر كلما وقف حتى يتوضأ يفتح الصنبور لا ينزل الماء، فهذا الآخر يجوز له أن يقول: الله لا يريد بي الهداية، فكلما يريد أن يتوضأ أو يغتسل للجنابة ويتوضأ للصلاة لا ينزل الماء، فيقول الله ما أراد له الخير. لكن

هل الواقع أنه الأسباب فلان ولا تتعطل عند علان، أم أن الأسباب واحدة لجميع الناس؟ الأسباب واحدة فأهل السنة يقولون بالسبب، ويعتقدون أن الله يجمع بين الخلق والأمر {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ}، وكذلك يؤمنون بالقدر، لكن لا يسلبون عن الإنسان قدرته ومشيئته، والله عز وجل إنما يحاسبك على ما تقدر عليه، أما الذي لا تقدر عليه فلا يحاسبك، لن يسألك الله عن طولك، ولا عن لون عيونك، ولا عن بشرك، ولا عن جنسيتك، الله لن يسألك عن هذا، فكل ما ليس لك فيه قدرة لا يحاسبك الله عليه، واعلموا أن قدرة الله هي فوق قدرتنا، واعلموا أيضا هذا الأمر المهم كما ذكره ابن أبي العز وأهل العلم أصحاب السنة: المكتوب في اللوح المحفوظ هو بصيغة الفعل لا بصيغة الأمر، فمكتوب في اللوح المحفوظ أن مشهورا يجلس يوم الجمعة أو يوم السبت في مسجد الرحمة يدرس كتاب (تجريد التوحيد)، وليس مكتوبا بصيغة الأمر في اللوح المحفوظ: اجلس يا مشهور في مسجد فلان، ودرس كتاب كذا، فاللوح المحفوظ مكتوب بصيغة الفعل، لا بصيغة الأمر، فأنا جئت مدرسًا طامعا في الأجر والثواب، وأنتم جئتم حضورا طامعين بالتعلم والأجر والثواب، من تلقاء أنفسكم، لم يجبركم أحد، فمجيئكم وعدمه هو من مشيئتكم، فالموجود في اللوح المحفوظ ليس افعل، اجلس يا فلان، اذهب يا فلان، قل يا فلان، افعل كذا يا فلان، لأن المكتوب في اللوح المحفوظ إنما هو بناء على علم الله الخالص، العلم الذي لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، العلم الشامل الكامل الذي يوافق حقيقة الأمر، وليس لأن سلب الناس قدرتهم فجاؤوا مسلوبي القدرة، أو لأنها قد عطلت!! لا الأسباب لم تعطل.

فمذهب أهل السنة مذهب تدل عليه جميع النصوص دون غيره، وهو المذهب الوارد في الفطرة، والموافق للمقدمات العقلية الصحيحة، وما عدا ذلك يقولون قولا أشبه ما يكون بالخزعبلات والخرافات.

فأهل السنة يقولون بقواعد صحيحة في القضاء والقدر، ولذا فهموا الحكمة من العبادة، فوفقهم الله تعالى للقول بهذا المذهب الذي يجمع فيه بين جميع النصوص، هم القائلون بالجمع بين الخلق

والأمر والقدر والسبب، نعتقد أنه سبب الشبع الطعام، ونعتقد أن سبب القطع السيف وسبب الحرق النار، وسبب الغرق الماء، وما شابه، فلا نعطل الأسباب أبدا، فقولنا هو المقبول عقلا، وهو الذي وردت فيه النصوص، فبناء على هذا الكلام عندهم أي أهل السنة أن سر العبادة وغايتها مبني على معرفة حقيقة الإلهية، ومعنى كونه سبحانه وتعالى إلهًا، فهم أهل الحق يعبدون الله عز وجل تألهًا، أي تعبدا ومحبة وخوفا ورجاء وطاعة لله سبحانه وتعالى، فهذا معنى الإله، ما معنى الإله؟ المعبود بحق، ومعنى التأله العبادة، والإله هو المعبود بحق سبحانه وتعالى. فأهل السنة يعبدون الله لأنهم يتألهون بذلك، لأنه هو السيد ونحن العبيد، حقه علينا أن نعبده سبحانه وتعالى ونصنع ذلك محبة فيه، ونصنع ذلك طمعا بجنته، ونصنع ذلك خوفا من عذابه، هذا هو سر العبادة عند أهل السنة والجماعة.

نعم المحبة هي الأصل، إذًا الكلام عن المحبة مهم، ومتى تكون المحبة لله؟ ومتى لا تكون لله؟ ومتى تكون شركا أصغر؟ ومتى تكون شركا أكبر؟ وما شابه، يعني هذا الذي سأخصه وأختم به الكتاب بإذن الله تعالى في درسنا القادم، سيكون درسنا القادم حول المحبة وتفصيل المحبة، فالشرع ضبط المحبة حتى بالألفاظ، فقد ثبت في الصحيحين عن أنس أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)، أي الله ورسوله.

في صحيح مسلم من حديث عدي بن حاتم قال: خطب رجل أمام النبي –صلى الله عليه وسلم– ، فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال له النبي –صلى الله عليه وسلم–: "بئس الخطيب أنت قل: ومن يعص الله ورسوله فقد غوى".

ممنوع ومقبول، والمسألة تحتاج إلى فهم، موضوع المحبة موضوع دقيق، ويحتاج إلى فهم، ويحتاج أن تضع كل نص في محله حتى يظهر لنا لماذا النبي –صلى الله عليه وسلم– قال له: (بئس الخطيب

أنت)، المحبة أمورها مختلطة عند الناس، خصوصا أن قسمًا كبيرًا من المحبة يكون بحكم الذوق والوجدان، وبحكم الميل الطبيعي، كمحبة الزوجة، ومحبة المال والسلطان، هذه محبة مغروزة في النفوس.

قال: (وأن العبادة موجب الإلهية، وأثرها ومقتضاها).

العبادة مقتضى الألوهية، ما دام أنك مخلوق، وأن هنالك خالقًا، وأنك مربوب، وهناك رب، سبحانه وتعالى، فمقتضى العبودية العبادة، فهي موجب الألوهية، وأثرها ومقتضاها.

مقتضى الألوهية أن تكون عبدا لله عز وجل، لماذا أنت عبد، وتعبد الله عز وجل؟ لأن الله هو الذي خلقك، وهو الذي رزقك، وهو خالقك، ولذا قلنا: إن أهل السنة يَجمعون بين الخلق والأمر، نتوجه إلى الله بالعبادة لأنه الذي خلقنا، وهو الذي فطرنا وهو الذي رزقنا، ولا نستغني عنه ألبتة، حاجتنا إلى الله -سبحانه وتعالى- في كل لحظة، حاجتنا لله -عز وجل- حاجتنا لله -عز وجل- كمن يركب خشبة في بحر، وتظهر هذه الحاجة عند الخلق في وقت الشدة، ولذا المشركون يؤمنون بالله في وقت الشدة، وأما في وقت الرخاء فإنهم يكفرون بالله -عز وجل-، كما ذكر الله -عز وجل-: {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ}.

فالآن كثير من الناس ينسون الله -جل في علاه-؛ لماذا نعبد الله؟ نعبد الله لأن الله الذي خلقنا، وهو الذي يقدر علينا، وهو الذي يرزقنا، فالعبادة هي موجب الألوهية وهي مقتضاها وأثرها، والعبادة مع الألوهية ارتباطها وثيق، قال المصنف -رحمه الله-: (وارتباطها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسّمع، والإحسان بالرّحمة، والإعطاء بالجود).

حقيقة مر بنا في عدة مواطن في الكتاب، مواطن تحتاج إلى مراجعة أصل خطي للكتاب، أخونا الشيخ علي عمران رجع إلى مخطوط يعود إلى القرن الحادي عشر، وجدَه في مكة، في جامعة أم القرى، وهنالك مخطوط للكتاب نقله الناسخ من نسخة منسوخة سنة ثمان مئة واثنين وأربعين، المقريزي متى وفاته؟ فيما ذكرنا في الدرس الأول، متى مات المقريزي؟ تنسون؟ مات سنة ثمان مئة وخمسة وأربعين، في هذا الموطن الذي أنا أرجحه، وأرجح من معرفتي، وحدسي وظني، قوله (متعلق الصفات بالصفات) أظن أنها (متعلق الذات بالصفات) يعني صفاتك وذاتك واحد أم أكثر من واحد؟ واحد، صفاتك فرع عن ذاتك، فلا توجد صفات لك إلا بعد أن توجد ذاتك، فمراد المصنف في هذا الكلام أن الصلة وثيقة بين العبادة والألوهية، فلو قال: (متعلق الذات بالصفات) أحسن من قوله (متعلق الصفات بالصفات)، فتعلق آثار الصفات بالصفات فهو ارتباط وثيق، لكن الذي يغلب على ظني أن المراد ارتباط الذات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، ارتباطهم وثيق، لا تستطيع أن تحصل أي معلومة إلا بالعلم، وارتباط المقدور بالقدرة، وارتباط الصوت بالسمع، إذا لم يكن صوت أنتم لا تسمعون، فالسمع والصوت ارتباطهما وثيق، وكارتباط الإحسان بالرحمة، الرحمة متى تكون أنت رحيم بأولادك بزوجك بالناس، متى تكون؟ لما تحسن، فهذا ارتباط وثيق بين الإحسان والرحمة، وكذلك ارتباط العطاء بالجود، كيف يكون جوادًا من لا يعطي، هل هذا معقول؟!

كان هناك رجل في السوق، فوجد تفاحا، وهو فقير، وكان في زيارة لأخته، فتمنى أن يأخذ لها منه، فقال لأخته: هناك تفاح شهي في السوق، فقالت له أخته: لا تتعب حالك، كأننا أحضرناه، فكله خيال بخيال، فما يكون عطاء من غير أن يكون جودا، فالمراد بهذه الأشياء التي ذكرها بدءًا من ارتباط الذات بالصفات، إلى العطاء بالجود، أن الارتباط بينهما وثيق؛ كارتباط العبادة بالألوهية، فالله خالق، فيجب أن تعبده؛ لارتباط العبادة بالألوهية، ما دام أنه خالق، وأنه رازق،

وأنه محسن إليك، وأنه مطلع على أحوالك، فينبغي أن تكون عابدا لله عز وجل، وأنت دائما بحاجة لله سبحانه وتعالى.

كنا دائما نقول -كما ذكرنا هذا مفصلا في الدرس الماضي-: (كن عبدا لله بالاختيار كما أنك عبد لله بالاضطرار)، فاعبد الله عز وجل باختيارك وطولك، وانشراح صدرك، كما أنك عبد لله عز وجل بالاضطرار.

والله لو أن العصاة يعلمون أن الله قادر عليهم، لاستقاموا، لكن يعصي العاصي لأنه يجهل قدر الله، وهو لا يعلم صفات الله سبحانه وتعالى.

قراءة الطالب: قال المصنف -رحمه الله-: (فعندهم: من قام بمعرفتها على النحو الذي فسرناها به لغةً وشرعا ومصدرًا وموردًا استقام له معرفة حكمة العبادات وغايتها، وعلم أنها هي الغاية التي خلقت لها العباد، ولها أرسلت الرّسل، وأنزلت الكتب، وخلقت الجنّة والنّار).

الشيخ -حفظه الله-: إذن؛ لماذا أرسل الله الرسل؟ ولماذا أنزل الله الكتب؟ ولماذا خلق الله الجنة، ولماذا خلق الله النار؟ أجابنا الله عز وجل عن ذلك، أما إرسال الرسل، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}، ما أرسل الله رسولا إلا أوحى إليه أن الله لا إله إلا هو، فاعبدوه.

وقال الطحاوي في عقيدته: (وأرسل الله النبيين إليه داعين، وبه معرفين، ولمن أجابهم مبشرين، ولمن خالفهم منذرين).

{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}، فالله ما أرسل الرسل، وما أنزل الشرائع إلا ليعبدوه، ويتألهوه، فإذًا نحن نتأله ربنا، العلاقة بيننا وبين ربنا علاقة واضحة، الله لا يحابي أحدا، ليس بينه وبين أحد من خلقه

نسب، وليس بينه وبين أحد من خلقه صلة، وليس له أحباء وأبناء، كما قال اليهود -لعنهم الله-: نحن أبناء الله وأحباؤه!! لا، علاقة كل الخلق مع الله علاقة الخالق مع المخلوق، علاقة الرب مع المربوب، علاقة الكامل في أسمائه وصفاته وأفعاله مع الناقص في أقواله وأفعاله وذاته، ولذا نحن بحاجة إلى الله عز وجل.

ولا صلة بيننا وبين الله إلا أنه ربنا، وبالتالي نحن نتأله إليه ونتعبد إليه، فعندهم من قام بمعرفتها على النحو الذي فسرناها به لغةً وشرعا، مع معرفة العبادة، مصدرا وموردا، استقام له معرفة حكمة العبادات، وهذا الله عز وجل وضحها: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، اللام في قوله {ليعبدون}، في اللغة العربية، لام التعليل لام العلة. ما خلق الله عز وجل الجن والإنس إلا من أجل العبادة {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

قال: (فعندهم: من قام بمعرفتها على نحو الذي فسرناها به لغةً وشرعا مصدرًا وموردًا استقام له معرفة حكمة العبادات وغايتها به، وعلم أنها هي الغاية التي خلقت لها العباد، ولها أرسلت الرّسل، وأنزلت الكتب، وخلقت الجنّة والنّار) استقام له معرفة ذلك المعرفة الصحيحة الشرعية القائمة على النقل، وعلم أنها هي الغاية التي خلق لها العباد ولها أرسل الرسل، وأنزلت الكتب، وخلقت الجنة والنار، وهذا شرف للإنسان، شرف أن تكون منتسبا لعبادة الله عز وجل، ومن لم يكن عبدا كان عبدا لمن سواه، لأن العبادة هي كمال المحبة مع كمال الذل.

هل يمكن أن يكون الإنسان عبدا لغير الله؟ اذهبوا للهند، وانظروا ماذا يعبدون، غير المسلمين منهم يعبدون آلهة غير الله لا حصر لها، لا أولها ولا آخرها، يعبدون الفئران! ونفسك تتقزز منه، طيب أخبرني، كيف يرضى عنه ربه؟ يعتقدون أنهم يعبدون فينبطحون ليأتيهم، فينهشهم، فمتى نزل الدم، اعتقد أن الله رضي عنه، أعوذ بالله من الشرك.

في الهند مَن يعبد البقر، يعبدون الفرج صورة فرج امرأة يعبدونه!! نسأل الله عز وجل العفو والعافية.

كتير من أهل الهند إلهه أنشئ، يعبد أي شيء، لأنه لا يعرف الحق من الباطل.

المسلم هو الذي يعرف الحق من الباطل؛ لأنه يعبد إلها له فضل عليه، وهذا الإله هو الذي خلقه، هو الذي رزقه وهو الذي يدير شأنه، وعلاقته معه علاقة تأله تعبد، فهو إله أي هو المعبود سبحانه وتعالى.

قراءة الطالب: قال المصنف -رحمه الله-: (**وقد صرح سبحانه وتعالى بذلك في قوله: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}**).

الشيخ -حفظه الله-: إذن ما خلقهم عبثا، بل خلقهم للعبادة، قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}، فالله ما خلقهم عبثا، وإنما خلقهم لغاية، وهذه الغاية هي العبادة: {إلا ليعبدون}، وتبدأ العبادة من أين؟ من التوحيد، قال غير واحد من السلف -وانظروا في تفسير ابن كثير وانظروا في تفسير ابن جرير-، قال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}: إلا ليعرفون، إلا ليوحدون، فهذا التوحيد تنبثق منه الصلاة والزكاة والحج، فهذا كله من أجل أن تعرف الله عز وجل، لذا تجد في صحيح مسلم: لما بعث النبي -صلى الله عليه وسلم- معاذ، قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يشهدوا أن لا إله إلا الله)، في رواية مسلم قال: (فإذا عرفوا ذلك)، إذا عرفوا ذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، الذي لا يعرف لا إله إلا الله، ما عرف الله، الذي لا يقر بأنه لا إله إلا الله ما عرف الله عز وجل. {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} إلا ليوحدون، فان وحد انطلق الآن في أنواع العبادة فكلها يجمعها أن الله جل في علاه واحد.

قراءة الطالب: قال المصنف –رحمه الله–: (العبادة هي التي ما وجدت الخلائق كلها إلاّ لأجلها، كما قال تعالى: {أَيَحْسَبُ الإنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً} أي: مهملاً. قال الشافعي – رحمه الله–: "لا يؤمر ولا ينهى". وقال غيره: "لا يثاب ولا يعاقب).

الشيخ –حفظه الله–: سأفصل قليلاً، لكن أرجو أن تنتبه لي، قلنا: لله إرادتان، له إرادة شرعية وله إرادة في كونه وخلقه، فالإرادة الشرعية تظهر واضحة، هي الغاية من خلق الله {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، المشيئة الكونية، لماذا خلق الله عز وجل الناس في قدرته الكونية، وليس في إرادته الشرعية؟ قال الله –عز وجل– في أواخر سورة هود: { وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ *إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ }، خلق الله في مشيئته وإرادته في كونه في إرادته للاختلاف، {ولا يزالون مختلفون إلا من رحم ربك}، مَن رحم الله هم الذين: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، فالآية فيها إرادة شرعية، وإرادة الكونية، فالله خلق الناس للاختلاف، وخلق الله –عز وجل– الشياطين بالإرادة الكونية. لماذا خلق الله الشياطين؟ الشياطين رسل الله وفق إرادته الكونية للكافرين، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا} تقلقهم تزعجهم، الكافر والضال جند الشيطان، إذا ما مشى الناس على ما هو عليه، وهذا ظاهر في الشذوذ والمثلية هذه الأيام، ينزعج، ويقاتل، فلله عز وجل رسل وفق المشيئة الكونية، ووفق الإرادة الكونية، ووفق الإرادة الشرعية، رسل الله أطهر الخلق وأحسنهم وأفضلهم، وهم الداعون للرحمة وهم الذين يقودون الناس إلى الجنة، ولا تفتح الجنة إلا بعد أن تفتح للأنبياء.

وهنالك رسل لله وفق مشيئته وفق إرادته الكونية، وهم الشياطين، يرسلون لأهل الشهوات، وأهل الشهوات أصبحوا أهل مكنة، يعلمون أن الناس إذا ما انغمسوا في الشهوات فهم السادة، فإذا الإنسان قدر أن يتحكم في شهواته، وأن ينال منها الحلال دون الحرام اضمحل هؤلاء، فهؤلاء الشياطين إذن يعملون على إثارة الشهوات بقوة، حتى يبقوا هم السادة.

فينبغي أن تفهم لماذا خلق الله الكون في الإرادة الكونية وفي الإرادة الشرعية، ينبغي أن تفهم هذا وأن تعلم الصراع القائم في الدنيا منذ أن خلق الله آدم إلى قيام الساعة سيبقى قائمًا بين جند الله الذين يريدون امتثال مشيئة الله الشرعية وبين جند الشيطان، فجند الشيطان يصنعون وفق إرادة الله الكونية لا الشرعية.

وينبغي أن نفهم ونحن نتكلم في سياق (لِماذا خلقنا الله تعالى) وخلقنا لعبادته، أن نعلم أن العلاقة بيننا وبين الله: أن الله عز وجل هو المألوه هو الرب ونحن نتأله إليه نتعبد إليه فهو الإله الذي يعبد بحق دون خلقه، لذا قال الإمام الشافعي وقال غيره في تفسير قول الله تعالى: {أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى} أن يترك هملا لا يؤمر ولا يُنهى، لا يؤمر بالخير، ولا ينهى عن الشر؟! فالله – جل في علاه– لأنه هو الإله وهو الرب أمرنا بالخير، ونهانا عن الشر، وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب، تثاب إن فعلت الخير، وتعاقب إن تركت فعل الخير ووقعت في الشر.

فكل العبادة هي أمر ونهي، والأمر قسمان، والنهي قسمان، فالأمر جازم وهو الفرض الواجب، وأمر غير جازم، وهو المندوب، ونهي جازم وهو الحرام، ونهي غير جازم وهو المكروه، ، فالعبادة قائمة على أمر ونهي، الأحكام التكليفية خمسة، في الفعل: الأمر فرض، والندب وهو أمر، في النهي: الحرام والمكروه وهو نهي، والفرق بين الأول والثاني في النوعين الجزم وعدمه، ويبقى القسم الخامس وهو المباح، والمباح: الفعل والترك سيان، افعل إن شئت أو اترك إن شئت، فالعبادة كل أمر، توابع العبادة، إنما هي أمر ونهي، ثواب وعقاب، لكن أهل السنة يقولون –كما سبق– نفعل الأمر بشرطين، ونترك النهي بشرطين، الأوامر نفعلها بشرطين المقبولين عند الله عز وجل للعبادة، ما هما الشرطان؟ الإخلاص والمتابعة، أما النهي فتترك النهي احتسابا؛ حتى يكتب لك الله –جل في علاه– الأجر، فإن تمكنت من فعل نهي فتركته من أجل الله، فأنت في طاعة وفي عبادة.

قراءة الطالب: قال المصنف -رحمه الله-: (وهما تفسيران صحيحان، فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنّهي، والأمر والنّهي هو طلب العبادة وإرادتها).

الشيخ -حفظه الله-: إذًا الأمر والنهي هما مدار العبادة، فلا ثواب ولا عقاب إلا على فعل الأمر وترك النهي، والله عز وجل عرفنا، وهذا من كرمه علينا، أعظم منة لله على خلقه، أنه عرفهم ما يحب وما يكره ماذا يبغض سبحانه وتعالى.

قراءة الطالب: قال المصنف -رحمه الله-: (وحقيقة العبادة: امتثالها. ولهذا قال تعالى: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا}، وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} ، وقال تعالى: {وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}، فأخبر الله - تعالى- أنه خلق السموات والأرض بالحق المتضمن أمره ونهيه وثوابه وعقابه).

الشيخ -حفظه الله-: الله -جل في علاه- خلق الخلق ليقيم الحق، فالحق حكمة لله عز وجل من خلقه: {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}.

هناك بعض الخلق يعبدون الشمس والقمر، وفي الأحاديث الصحيحة: يأخذ الله عز وجل الشمس فيكورها يوم القيامة، ويلقيها في جهنم، يأخذ الله القمر فيكوره فيلقيه في جهنم؛ تبكيتا لأهلها، لأنهم يعبدون الباطل، فالله خلق السماوات والأرض، وأقام الشمس والقمر، لنتفكر ولنعلم أن الله عز وجل خلق الخلق لهذه الحكمة وهي الحق، الذي يترتب عليه دخول الجنة أو دخول النار، والله -جل في علاه- من سننه أن كل نفس تكسب ما صنعت: {وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}.

قراءة الطالب: قال المصنف –رحمه الله–: (فأخبر الله –تعالى– أنه خلق السموات والأرض بالحق المتضمن أمره ونهيه وثوابه وعقابه. فإذا كانت السموات والأرض إنما خلقتا لهذا وهو غاية الخلق، فكيف يقال: إنه لا غاية له ولا حكمة مقصودة).

الشيخ –حفظه الله–: إذن؛ الآن هذا الكلام ماذا يريد به المصنف؟

حقيقة صنيع المقريزي مثال يقتدى: ذكر أقوال الباطل وزيفها، ثم ذكر قول الحق وفصله وكان هنيئا مريئا، وبعد أن فرغ منه بدأ يبين بطلان الأقوال السابقة، قوله: فإذا كانت السماوات والأرض إنما خلقت لهذا خلقت لإقامة الحق، وهو غاية الخلق، فكيف يقال إنه لا غاية له ولا حكمة مقصودة؟ هذا رد على من؟ رد على الفرقة الأولى الذين يقولون: خلق الله الأشياء ولا غاية له فيها، القدرية النفاة، الفرقة الأولى.

وقال: (أو إن ذلك بمجرد استئجار العمال حتى لا يتكدر عليهم الثواب بالمنة).

هذا رد على من؟ رد على الفرقة الثانية المعتزلة الذين يقولون: نحن الذين نخلق أفعالنا، وما نريد منةَ الله، سندخل الجنة بأعمالنا، وقد قلنا: هذا من أبطل الباطل، فهنا أيضا رجع على قولهم وزيفه بعد أن فصل الحق.

وقال: (أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية وارتياضها لمخالفة العوائد؟!.).

فهذا رد على الفرقة الثالثة كذلك بعد أن بين الحق، فالفلاسفة المتألهة وغلاة الصوفية، يقولون: خلقنا لنروض نفوسنا على الطاعات، لأن في النفوس قوى سبعية وبهيمية، فنريد تهذيبها.

إن شاء الله أغلبكم استماع تفسيري لسورة الفاتحة، قلنا: الفاتحة تبدأ بالحمد، ثم تمر بالعبادة، ثم الهداية، ثم النعمة، هذه الأمور الأربعة، وقلنا: لا يكون العبد حامدًا إلا وهو عابد، ولا يكون مهتديًا حتى يكون عابدًا، ولا يكون صاحب نعمة حتى يكون مهتديًا، فالصلات وثيقة. وقلنا:

صاحب العبادة قد يكون صاحب عبادة ضالة، فهؤلاء الناس من الفلاسفة المتألهة وغلاة الصوفية لا يثبتون وحدانية الله، ولا يثبتون أن الله خالق كل شيء، هم يحتاجون للعبادة حتى يهذبوا أنفسهم، وليس لأن الله هو الذي يستحق الألوهية، والصلة بيننا وبينه التي لا تنفك، صفة التأله والتعبد.

فليس كل عابد مهتديًا، فمتى يكون الإنسان مهتديا؟ حتى يقول: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، فينتقل من العبادة إلى الهداية، وليس كل مهتدٍ صاحب نعمة، والإنسان لا يكون صاحب نعمة حتى يقول: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، من الذين أنعم الله عليهم؟ السلف الصالح الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، الهداية بينت بكل أشكالها وأنواعها، بُيّنت بقوله: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ}، ثم بينت بأصحابها: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، ثم بأضدادهم: {غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ}، فلا يوجد بيان أكثر من هذا البيان. من صاحب هذا البيان؟ صاحب النعمة، وصاحب النعمة هي أعلى درجات العبادة، أعلى درجة من درجات العبادة بعد أن تقول: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}، أن تسأل ربك أن تبقى ثابتا على طريق السابقين، متجنبًا طريق المغضوب عليهم.

فأعلى درجة من الدرجات التي يحبها الله تعالى التي ذكرها في سورة الفاتحة النعمة، وهذه درجة النعمة أن تبقى سلكا سبيل من قبلك، ولذا كان من قبلنا يقولون –كما قال أيوب السختياني–، قال: (إذا استطعت ألا تحك رأسك أو بشرك بظفرك إلا بأثر فافعل).

أعلم الناس بأحوال السلف هو الإمام أحمد، فالإمام أحمد ما سئل عن مسألة إلا ويقول بقول من قبله، ولشدة اطلاع الإمام أحمد على من قبله، قالوا عن الإمام أحمد: محدث وليس بفقيه، فإنه يحدث فقط: قال فلان، قال فلان، قال فلان.

وهل يوجد شيء أحسن من ذلك، كما كان عليه الإمام أحمد؟ فالإمام لا يقول إلا بقول من سبق. بعض الناس لما قال: والله أنا حضرت الدروس عند فلان وعلان، قيل له: ما عنده جديد!!

فقولهم (ما عنده جديد) وإن لم يريدوا به المدح فهو مدح له، وليس بذم، فليس هناك أحسن من أن يكون متبعا لمن سلف من الأئمة الصالحين، هذا أحسن حسناته، أن يبقى متبعا للسابقين، وماذا عند المتأخرين؟! الجديد يا أصحاب الجديد، ماذا عندكم؟!!

هل كل الخير إلا في اتباع من سلف، وكل الشر في ابتداع من خلف.

فبعد أن رد المقريزي رحمه الله على الفرق الثلاث الأولى، بقي القول الأخير:

قراءة الطالب: قال المصنف -رحمه الله-: **(وإذا تأمل اللبيب الفرق بين هذه الأقوال، وبين ما دل عليه صريح الوحي؛ علم أن الله -تعالى- إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته، مع الخضوع له والانقياد لأمره).**

الشيخ -حفظه الله-: اللبيب صاحب العقل الراجح، إذا ما تأمل الفرق بين هذه الأقوال (وما دل عليه صريح الوحي)، المراد صريح ما ورد في الوحي في جميع النصوص، فإنه بلا شك يعرف الحق.

إذًا؛ ما معنى العبادة؟ الأفعال الظاهرة والباطنة، والتي فيها المحبة الكاملة والخضوع الكامل والانقياد التام لله سبحانه وتعالى، كل ما يحبه الله ويرضى من الأفعال الظاهرة والباطنة، هذه عبادة لله سبحانه وتعالى، فخلق الله الخلق لعبادته، ولم يخلقه لمجرد مشيئته من غير حكمة، ولأن الناس لا يرتبطون بإرادته أو إرادته الشرعية، فهم يفعلون العبادة محبة له، وطمعا في جنته، وخوفا من عذابه، الأصل في العبادة المحبة، والمحبة لها ركنان، كمال العبادة لها ركنان: كمال المحبة مع كمال الانقياد، فهذا أصل العبادة، لابد من الأمرين: كمال المحبة مع كمال الانقياد.

فإذا كانت محبة مع عدم انقياد لا حرج فيه، تحب الدينار، تحب الدرهم، تحب الزوجة، تحب الأصحاب ما عدم الذل لا حرج فيه، وهذا ليس عبادة.

وأن تذل لجبار مع عدم كمال المحبة، ليست هذه عبادة.

العبادة لابد من أمرين: كمال المحبة مع كمال الذل، أما محبة مع عدم ذل فليست عبادة، وذل ما عدم محبة فليست عبادة، العبادة كمال المحبة مع كمال الذل مدموجين مجتمعين بإرادة العبد، هذه هي العبادة.

أنت عبدٌ لله، تحب الله، وحبُّ الله مقدم على كل حب، ومع المحبة ذل، يظهر الذل في صنيعك، في صلاتك، والعرب عند كثير منهم كبر، فابن خلدون يقول: العربي عنجهي، لا يروضه إلا الطاعة، دعي بعض العرب إلى الصلاة، فنظر كيف الصلاة، قال: أضع استي فوق رأسي، ذل! لكنه ذل في مقام المحبة والعبادة، أنا أضع رأسي بإرادتي، لذا سئلوا عن وضع اليمين على الشمال على الصدر في الصلاة، تقف في الصلاة تضع يمينك على شمالك، قال: هذا ذل، لكن هذه وقفة ذل مع محبة، وأفعل ذلك بإرادتي وأفعل ذلك مع كمال محبتي، بأن أضع رأسي فوق استي، وأضع يميني على شمالي على صدري كالمسكين، بل هي المسكنة، أن تكون مسكينًا بين يدي الله عز وجل، فكمال الذل مع كمال المحبة، تولد عبادة.

قراءة الطالب: قال المصنف –رحمه الله–: (فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده تعالى بالمحبة، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب ما يحبه لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته، لأن محبتهم من تمام محبته، وليست كمحبة من اتخذ من دونه أندادا يحبهم كحبه).

الشيخ –حفظه الله–: أي فلا يحب مع الله سواه المحبة الشرعية التي هي مع الذل عبادة لله، فلا تكون هذه المحبة لأحد مع الله، أما إن أحببت مع الله غيره من غير ذل، فهذا لا حرج فيه، أما الحب والذل هذه خالصة لله.

(وإنما يحب ما يحبه لأجله وفيه)، انتبه! تحب ما يحبه الله لأجله، وفيه، حبك في الله، وتحب من أجل الله، وهذا يستدعي أن نذكر بأصل سنفصله في الدرس القادم: أنه لا يحب أحد لذاته إلا الله.

هل نحب رسول الله؟ نحبه، نحب رسول الله.

هل محبتنا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- كمحبتنا لله؟ لا، محبتنا لله هي الأصل، ولا يحب أحد لذاته إلا الله، حبنا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو فرع من حبنا لله، ولذا جعل الله اتباع رسول الله امتحان المحبة، فنحن نحب لله، نحب من أجل الله سبحانه وتعالى.

طيب، هل كمال الحب مع كمال الذل هو في حبنا لرسول الله؟ لا، فالذل لله وحده، لأن الله الذي خلقنا، ولأن الله الذي رزقنا، لا نذل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإنما نحبه ونقدم أمره، لكن حبنا له -صلى الله عليه وسلم- هو فرع من حبنا لله، ليس هو حبًّا منفصلًا ولا مساويًا لحب الله سبحانه وتعالى، نحبه سبحانه، فنعظم ما عظم، ونحقر ما حقر، ولذا نحن لا نعظم ما حقر الله، ولا نحقر ما عظم الله، فإن فعلنا، فإذًا محبتنا لله ليست محبة تامة كاملة.

قال: (وإنما يحب ما يحبه لأجله وفيه)، لا معه، لا نحب مع الله، فقلبنا يتسع لمحبة رسوله، ومحبة الصالحين، ومحبة العمل الصالح، هل هذا يتناقض مع حبنا لله؟ لا، لأن هذا كله هو آثار محبتنا لله سبحانه وتعالى، ولا نحب أحدًا حبنا له، لا نحب أحدا مع الله حبنا له، وإنما حبنا فرع عن حبنا لله سبحانه وتعالى.

قراءة الطالب: قال المصنف -رحمه الله-: (وإنما يحب ما يحبه لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته، لأن محبتهم من تمام محبته، وليست كمحبة من اتخذ من دونه أندادا يحبهم كحبه).

الشيخ –حفظه الله–: الحب لله عز وجل هو الحب الباقي الدائم النافع في الدنيا والآخرة، {الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ} . إذا أحببت أخاك في الله، فتحشر يوم القيامة على منابر من نور، على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، سبحانه كما في صحيح مسلم بهذه المحبة. فحبك لأخيك في الله، لا مع الله. وانما هذه محبة فيها طاعة وفيها عبادة، وأثرها باق إلى يوم القيامة، بخلاف المحبة التي ليست لله، {الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ} .

قراءة الطالب: قال المصنف –رحمه الله–: (وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر والنهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة).

الشيخ –حفظه الله–: حقيقية المحبة والعبودية لله لا تكون دعوى، هذه الدعوى لها امتحان، والامتحان بيَّنه الله: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}، هذه جاءت في آل عمران، لما قال اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، يعني محبة اليهود والنصارى لله امتحان واتباع رسول الله، مجرد ما بعث رسول الله –صلى الله عليه وسلم– محبة الله انقطعت عن كل الخلق، ولم تبقَ إلا لمتبعي رسول الله –صلى الله عليه وسلم–، سواء الاتباع الكلي بترك اليهودية والنصرانية للإسلام، أو الاتباع التفصيلي في العبادات، فالعبادة التي لا توافق ما كان عليه رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فكل من ادعى محبته فهي دعوى كاذبة.

ولذا نحتاج الكلام عن المحبة وطبيعة المحبة، وأصل المحبة، وأن الأصل في المحبة هو الله جل في علاه، ثم بعد ذلك تتفرع المحبة، وأنها باعث المشوق للطاعة، وهذا الذي نأتي عليه في درسنا الأخير في درسنا القادم، ولا سيما أن العبادة لها أربعة قواعد، القاعدة الأولى: إنما هي قول القلب ثم قول اللسان، ثم فعل القلب، ثم فعل الجوارح.

وبهذا ختم المؤلف أن العبادة لها أربعة محال، الأول: قول القلب، الثاني: قول اللسان، الثالث: فعل القلب، والرابع: فعل الجوارح.

فقول القلب وفعل القلب مدارها المحبة، فالمحبة هي الأصل، يعني من قال: نحن نعبد الله محبةً، صحيح، لكن هذه المحبة لا توصل للجنة مثل الطير إلا بجناحين، خوف الرجاء، ولكن الأصل هو المحبة، إذًا الإنسان لما يدخل الجنة ينقطع الخوف، ينقطع الرجاء، ولذا أهل الجنة يخبرون عن أنفسهم: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ} الحزن متى يذهب؟ لما تدخل الجنة، فالخوف والرجاء لما تدخل الجنة يتحقق المأمول، ويزول المحظور، وتبقى المحبة، المحبة لها منزلة كبيرة، ولذا من عبد الله بالمحبة لا ينقطع، كالعامل، العامل إن عمل مقابل أجر، أو خوف من عقاب انقطع، وأما العامل إن كان انطلاقه في عمله إنما هو المحبة، فهو لا ينقطع، ولذا قال الله للنبي –صلى الله عليه وسلم– قال: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ}، العقل يسمع لما تعمل عمل صالح، ينصرف الذهن: فإذا فرغت فعليك بالراحة، لكن قال الله للنبي –صلى الله عليه وسلم– فإذا فرغت فانصب، ما معنى {فانصب}؟ ابدأ بعمل جديد، واتعب تعبًا جديدًا، وكلما فرغ هكذا حال، فلا تفرغ عن العبادة أبدا.

وما هو سر قول الله لنبيه –صلى الله عليه وسلم–: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ}؟ أن النبي –صلى الله عليه وسلم– يعبد الله محبةً.

هل النبي كان يخاف ويرجو؟ هو سيد الخائفين، وسيد الراجين، لكن الباعث الأصلي والمشوق الفعلي للعابدين إنما هو محبة الله، وأثر محبة الله عظيمة في النفس، وهذا الذي نأتي عليه في درسنا القادم. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم–.